جامعة كربلاء
كلية العلوم الإسلامية
دراسات اسلامية معاصرة / العدد 39 / آذار 2024

الاستلزام الحواريّ المعمّم في تفسير مواهب الرحمن في تفسير القرآن للسيد عبد الأعلى السبزواري (ت1414هـ)

Generalized dialogical imperative In the interpretation of the Mawāhib al-Raḥmān in the interpretation of the Qur'an by Sayed Abdul Ala al-Sabzwari (d. 1414 AH)

مها شاكر عباس
Maha Shaker Hussein IsmaiI
مديرية تربية كربلاء
Directorate of Education of Holy Kerbala
أ.م. د. معالي هاشم علي أبو المعالي
Asst. Prof. Dr. Maaly Hashim Ali Abo almaaly
جامعة كربلاء/ كلية العلوم الإسلامية
University Of Karbala / College of Islamic Sciences

الكلمات المفتاحية: الاستلزام الحواري المعمم، العلامات اللغوية، الأسوار اللغوية.

Key words: Generalized dialogical imperative ,Linguistic signs, Linguistic fences.

الملخص:

تُعد التداولية من أهم الدراسات المعاصرة التي تعنى بأطراف العملية التواصلية بين المرسل والمرسل إليه ولاسيما الاستلزام الحواري الذي يكشف عن المعنى المضمر لدى المتكلم لإيصالها إلى المخاطب بطريقه غير مباشرة، ويُستدلّ عليه من خلال تراكيب اللغة وسياقات التواصل، ونجد إنّ القارئ المتمعن لمفهوم نظرية غرايس في الاستلزام الحواري، اعتمدها للتعبير عن المعاني المقصودة أكثر من التعابير اللغوية المنطوقة بعدما عجزت النظرية الدلالية القيام به، فاتبعت قواعد سُلوكية بين المتحاورين أسماه (مبدأ التعاون)، قد تخالف أو تستغل القواعد عن قصد لإيصال ما نعنيه عن تأويل الكلام،وقد ميز غرايس بين نوعين من الاستلزام واطلق على الاول الاستلزام المعمَّم (generalized)والثاني الاستلزام المخصَّص (particularized) وسنتناول في البحث الاستلزام الحواري المعمّم والاغراض التداولية التي تؤديها، مع الأخذ بعين الاعتبار المقامات والسياقات التي وردت فيها.

Abstract:

Pragmatics is one of the most important contemporary studies that is concerned with the parties to the communication process between the sender and the addressee, especially the dialogical imperative ,which reveals the implicit meaning of the speaker in order to convey it to the addressee in an indirect way, lt is inferred through language structures and communication contexts ,and the concept of Grace's theory of dialogic implication, we find that he adopted it to expressions after semantic theory failed to do so, thus, behavioral rules were followed between the interlocutors called (the principle of cooperation),which may violate or exploit the rules intentionally to convey what we mean about the interpretation of speech. Grice distinguished between two types of obligation and called the first the generalized obligation (generalized) and the second the specific obligation (particularized).ln the research, l will discuss the generalized dialogue obligation. And the deliberative purposes you seek, taking in to account the positions and contexts in which they are mentioned.

المقدِّمة :

لا يخفى ما للاستلزام الحواري وتوظيفاته في الأساليب اللغوية الخبرية الإنشائية من استجلاء المقاصد التي جاء بها النص القرآني، خاصة ما يتعلق بجنبة تتبعه في المعمّم والمخصص، وهو ما يخدم لزوما لغتنا الحبيبة، وعلى رأسها لغة القرآن العظيم، بما يشتمل عليه من نحو وصرف ودلالة وبلاغة وأساليب وغيرها مما أبهر القلوب، وأخذ بمجامع الألباب.

وفي هذا البحث كان المحور هو الاستلزام الحواري المعمم، ودلالاته المتعددة التي يخرج إليها، ثمّ توجيه المعنى الذي أرادته الآيات الكريمة، في تفسير مواهب الرحمن للسيد عبد الأعلى السبزواري(ت1414هـ) ؛ أي: دراسة

المعنى المتحصّل من التفاعل التواصلي في تأويل العلامة التداولية، والمعاني المترتبة على كلّ منها، وما أخذت به الباحثة منها، أو عارضت غيرها باتحاد عوامل عدة، يؤخذ بها لهذا التوجّه أو ذاك.

وقد حاولنا الخوض في نصوص عدة للكشف المعنى، ومن ثمّ الوقوف على المعاني الأقرب بتحليل القرائن والسياق، وموافقته المقام، على نحو لا يذهب بنا إلى تقدير وتكلّف خارج عن نطاق المتعارف في كتب النحويين والمفسّرين، وإنما هي محاولة توافقية لفهم يستحسنه العقل، وترتضيه الأدلة؛ أملاً في إضافة شيء ذي قيمة إلى المجال العلمي بدراسة الاستلزام الحواري المعمّم، والوقوف على نسق منطقي في معالجته.

أولاً: الاستلزام الحواريّ المعمّم (Generlized Conversation Implicature)

يُعد أحد أنواع الاستلزام الحواري ويُعّرف بأنه: الاستلزامات التي تنشأ من مراعاة قواعد المحادثة، لاسيّما قاعدة الكم[1]، وهو لا يرتبط بسياق خاص؛ لذا لا يحتاج الى معرفة خاصة بسياق التلفظ لإدراك المعنى الذي يستلزمه؛ لذا عُرِف هذا الاستلزام بالمعمّم، فهو ينتج من عبارة المتكلم في سياقات عامةّ يتعذّر على المرسل إليه الانتقال إلى قصد غير القصد الأصل الذي يتطابق فيه معنى الخطاب مع قصد المرسل، وهو ما دعاه الى أنَّ يسميه " الاستلزام الأنموذجي"[2] أو" النمطي"[3]. وحاول غرايس في هذا النوع أن يضع ثلاثة معانٍ لـ(اسم نكرة)، المعنى الاول يستلزم ليس له علاقة قرابة بشخص يحدده (المتكلم) وغيره، والثاني يدلّ على أن (اسم نكرة) لا تربطه إلا بعلاقة غير وثيقة نوعاً ما بشخص يحدده السياق، والمعنى الثالث بأن شخصاً ما تربطه علاقة وثيقة بشخص يحدده السياق [4]. من خلال هذا يتولد الاستلزام الحواريّ المعمّم (Generlized Conversation Implicature) المتولّد بوساطة العلامات اللغوية، كما أنَّ هنالك لونا آخر من الاستلزام يتولّد بطريقة التدرج في القيم، وهو ما يسمى بالاستلزام الحواريّ المعمّم (السّلمي) (Scalar implicature) المتولّد بوسائط (الأسوار اللغوية)، والّذي يحصل عن طريق اختيار كلمة تعبِّر عن قيمة واحدة من بين تدرج للقيم، ويتضح هذا الأمر جلياً في ألفاظ تستعمل للتعبير عن الكم: "كل، معظم، كثير، بعض، أحياناً، دائماً" فكل واحدة من هذه الالفاظ يمثل حدّاً أعلى في التدرج أو حدّاً أدنى، وباختيار أي واحدة من هذه الألفاظ فإمّا أنْ يُنفى الحدّ الأعلى وإمّا الأدنى[5]. فلو قال المتكلم: "أدرس علم اللّغة وقد أكملت بعض المقررات" فاختيار لكلمة "بعض" يستلزم ويتضمن نفي الحد الأعلى (المقررات كلها أو معظمها)، وكذا العكس فيما لو اختار " كل أو معظم ".

وإنَّ الّذي اهتم غرايس بمعالجته هو الاستلزامات الحوارية (التلويحات) الّتي لا يقتصر في الوصول إليها على المضمون الدلالي؛ بل يحتاج فيها إلى معرفة الظروف كلّها الّتي تكتنف عملية إنتاج الملفوظات، بالاعتماد على مبدأ التعاون الّذي أسسه غرايس نفسه[6]. وهو على نوعين :

1. الاستلزام الحواريّ المعمّم المتولّد بوساطة العلامات اللغوية (Generlized Conversation Implicature)

تُعرف العلامات اللغوية في نظر دي سوسير بأنها هي " وحدة أساسية في عملية التواصل بين أفراد مجتمع معين، وتضم جانبين أساسيين هما: الدال(Signifant) والمدلول (Signifie). فالدال هو الصورة السمعية التي تدلّ على شيء ما أو تعنى شيئا ما، والمدلول هو "التصور" أو الشيء المعني "[7]، ومن العلامات اللغوية (اسم النكرة) وحاول غرايس أن يضع لها ثلاثة معانٍ، نستعرضها في بعض النصوص أو الوحدات الحوارية في تفسير السيد السبزواري هي:

الوحدة الحوارية الاولى:

قال الله تعالى محاورا رسوله (ص) واصفا له لحال المنافقين: (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ) [البقرة: 17].إذ وصف سبحانه وتعالى حال المنافقين، ليتجنب المؤمنون كيدهم وإغواءهم وتضليلهم وخبثهم، فنجد أنّ التفاعل التواصلي في تأويل العلامة التداولية (نَارًا) نكرة، وهذا يستلزم بحسب المعنى الأول لنظرية غرايس؛ لأنّ الرسول الأكرم لم يكن يعرفهم، وليس له اي ارتباط بهم، سواء معرفة صفاتهم، لأن الأمر من قبيل القضية الحقيقة شامل لكل مَن يكون كذلك، فقد مثلهم بالتشبيه التمثيلي وحقيقته أن يكون وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدّد، أي انّ حال المنافقين في نفاقهم وإظهارهم خلاف ما يسترونه من كفر كحال الذي استوقد نارا ليستضيء بها ثم انطفأت فلم يعد يبصر شيئا[8]، هذا من ناحية النور الظاهري من إيقاد النار، وأما النور المعنوي فالمقصود به هو الإسلام، كما قال تعالى: (أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ على نُورٍ مِّن رَّبِّهِ) (الزمر: 22) فإن المنافق لتماديه في الغي والضلالة حصلت له طبيعة ثانية أوجبت اطفاء نور الفطرة والاعراض من الإيمان، فأوكله الله إلى نفسه وذهب بنوره بقوله: (ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ) فلم يقل: أذهب الله نورهم، ربما كان يتوهم أنه إنما أذهب عنهم النور وبقي هو معهم فربما عوضهم بدل ما فاتهم فلما قال: ذهب الله بنورهم كان ذلك حسما وانقطاعا من حصولهم على أي خير لهم أو منهم وهذا من أسمى ما يصل إليه البيان، وذلك أن الجميع منتسب إليه بواسطة الأسباب الحاصلة باختيارهم، وفي قوله تعالى: (وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ)، نجد إشارة السيد السبزواري إلى أنّ تعالى صيّرهم في الظلمات لا يبصرون شيئاً، وسلب جميع الكمالات الإنسانية ومراتب النور عنهم في الدنيا والآخرة فلا يرجى خير منهم ابدا[9]. ولو حاولنا تحليلها بلاغياً نجد المخالفة بين الضميرين وحد الضمير في (اسْتَوْقَدَ وحَوْلَهُ) نظرا الى جانب اللفظ؛ لأن المنافقين كلهم على قول واحد وفعل واحد، وأما جانب المعنى في (بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ) فلكون المقام تقبيح أحوالهم وبيان ذاتهم وضلالهم فإثبات الحكم لكل فرد منهم واقع[10]. وعليه يمكن القول: إنّ تأويل الملفوظات على وفق غرايس (يتوقف على عاملين اثنين: معنى الملفوظ والسياق المقامي لإنتاجه) [11]، فنلحظ أن التفاعل التواصلي في تفسير الحوار القرآني عند السيد السبزواري جاء مطابقا للمعنى الأول لنظرية غرايس، لتأويل العلامة اللغوية في الاستلزام المعمّم، والمعنى المضمر من وصف الله حال المنافقين هو الحذر منهم.

الوحدة الحوارية الثانية:

قال الله تعالى على لسان اليهود للنبي موسى (عليه السلام): (قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ) [المائدة: 22] .حكاية تذّكر بني اسرائيل بضروب من الآلاء والنعم العظيمة الذي خصهم الله تعالى بها، فلما أمرهم نبي الله موسى(عليه السلام) بالدخول إلى الارض المقدسة التي كانت موضع اختبار لهم، فأعرضوا عن الطاعة وجابهوا نبيهم بضعف قوتهم امام قوة القوم بوصفهم بـ(جَبَّارِينَ) فيدل على أنّهم على معرفة سابقة بصفاتهم؛ لأنهم عُرفوا لشدة بطشهم وقوتهم وعظيم خلقهم إذ كانت لهم أجسام وخِلَقٌ ليست لغيرهم، قد قهروا سائر الأمم غيرهم[12]، وهم الكنعانيون[13]، وقيل هم من بقايا عاد[14] وقد بيّن السيد السبزواري أنّ هذا الحوار يرمز إلى استعمال العلامة اللغوية (قَوْمًا) نكرة، وهذا يستلزم أنهم لا يعرفون القوم، ولم يكن لهم اي ارتباط بهم، بدليل خوفهم منهم واشتراطهم عدم الدخول الاّ بخروجهم: (وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ)، ويؤكد ذلك اتيان الجملة الأسمية المصدرّة بـ(إنْ) في الجزاء للدلالة على تحقيق الدخول وثباته عند تحقق الشرط، وهذا يرجع الى تأثر نفوسهم من العبودية الطويلة فلم يتقبلوا بسهولة حريتهم ورجوع استقلالهم، فقد أحبوا خروج الجبابرة بسبب من الأسباب وإن لم يكن لهم أي ارتباط به[15]. وهذا الشاهد موافق للمعنى الثاني الذي وضعه غرايس في هذا الاستلزام، ونجد أن آلية الحوار بين الطرفين والتي أشار لها السيد السبزواري تُبيّن بأن وعدهم بالدخول وان كان حقيقته هو الرد للحكم الالّهي والنكوص عن طاعة موسى (عليه السلام)، الاّ أن تصريحهم عن الامتناع من الدخول أنما هو لأجل وجود الجبابرة فيها فلابد ان يخرجوا منها بأي سبب كان، أن الوظيفة التداولية لهذا التنكير الموصوف هي الوظيفة الاقناعية، وهذا الأمر نلحظه في قول أرسطو: " متكلم معبر، يبحث بطبعه عن الإقناع ويحاول أن يصل بكلامه إلى إقناع أكبر عدد ممكن من الناس بوسائل مستمدة من التفكير "[16].

الوحدة الحوارية الثالثة:

قال الله تعالى على لسان نبي الله زكريا (علية السلام):(قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) [آل عمران: 40]. إنّ التفاعل التواصلي في هذا الحوار في استعمال الرمز التداولي (غُلَامٌ) نكرة، والجملة تدل على التعجب ففيها استفهام بـ(أَنَّى) بمعنى (كيف) وتدل عن حقيقة الحال[17]، ويشير السيد السبزواري إلى أن الآية فيها طلب لتفهم خصوصيات الافاضة والمناجاة مع الحبيب والتلذذ بالحديث معه، فليس لأجل الاستعظام والاستبعاد، كيف هو المبشر بما طلبه، وهذا دليل على أن المتكلم يُعرف خصوصيات المبشر وحقيقته[18]، من خلال الآية التي سبقت آية الشاهد في بحثنا وهي قوله تعالى: (فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) [آل عمران: 39] إذ ينطبق مع المعنى الثالث عند غرايس؛ لأن المتكلم هو النبي زكريا (علية السلام) يعرف حقيقة الغلام اسمه وصفاته من خلال قوله تعالى على لسان الملائكة "(مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا

وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ)، وذكر زكريا (علية السلام) وصفين في المقام هما المنشأ في التعجب والاستعلام للإرادة الربوبية، مع علمه بأن الامور لا تجري الاّ بأسبابها، فيرجع طلب الولد خلاف النظم الطبيعي في التناسل بين بني البشر[19] بقوله: (وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ) وهي جملة حالية تسبقها واو الحال[20]، ووصف (عليه السلام) حالهما بإسناد البلوغ الى الكبر وهو الظاهر، ولكنه عدل هنا للإشارة إلى أن الكبر قد أصابه بضعفه وما فيه من آلام وأسقام وضعف[21]. ويقول في ذلك الزمخشري(ت 538هـ): «وقد بلغني الكبر كقولهم أدركته السن العالية، والمعنى أثر فِيَّ الكبر فأضعفني)[22]، وعقر امرأته بمعنى عدم الحمل ويطلق على الرجل الابتر الذي لا ولد له، ولا فرق بين المذكر والمؤنث. وقد أجابه سبحانه وتعالى بما يزيل عجبه، ويمنع حيرته؛ وذلك بأن بين أن الله تعالى فوق السنن الكونية وفوق الأسباب في الخلق؛ لأنه خالق الأسباب[23]؛ فقال تعالى: " كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ " فالإجابة هنا لَا تتضمن فقط إزالة تعجب زكريا (عليه السلام) بل تتضمن مع ذلك تقرير قضية عامة، وهو أن الله يفعل ما يفعل باختياره وإرادته غير مقيد بأي قيد إنه سبحانه فعال لما يريد[24]. فقد جاء الحوار القرآني في تفسير السيد السبزواري مطابق للمعنى الثالث لنظرية غرايس، والغرض التداولي من مجيء النكرة هنا هو التعجب بقدرة الله تعالى.

الوحدة الحوارية الرابعة:

قال الله تعالى محاوراً رسوله الأكرم (ص): (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) [البقرة: 4، 5]. وهو خطاب الله تعالى للرسول الأعظم (ص) في بيان حال المتقين هو الإيمان بالقرآن وسائر ما أوحي إليه (صلى الله عليه وآله) وما أنزل من الكتب السماوية السابقة المنزلة على الأنبياء، واليقين بالآخرة هو أعلى مراتب كمال النفس الإنسانية، ويظهر أثر ذلك في أفعاله وأعماله وأقواله؛ لأنّ اليقين باعث وزاجر، وقد ذكر تعالى الضمير(هُمْ) تثبيتاً لهذه الصفة الخاصة لقسم خاص من المؤمنين[25]، ولو تأملنا رمز التفاعل التواصلي في النص لوجدناه ناتجاً عن تأويل العلامة التداولية (هُدًى) التي جاءت نكرةً، وهذا استلزم بحسب المعنى الثالث لنظرية غرايس المتضمنّة في الاستلزام الحواري المعمّم. ويُحلل السيد السبزواري هذه الآية إذ يرى أنّ تقديم قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) على قوله (وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) إشارة إلى فضيلته وجامعيته وكماله الّا انّها دلالة على أن إيمان أهل الكتاب بموسى وعيسى (عليهم السلام) وكتبهما لا أثر له ما لم يؤمنوا بالقرآن، مع انهم يدركون ذلك الّا أنهم ينكرون كتابه ورسالته، وأما مقام حال المتقين فأنّ اتصافهم بالصفات المذكورة يقتضي حقيقةً فوزهم بالهداية والفلاح، بدليل تكرار اسم الإشارة وذكر ضمير الفصل " هُمُ " لرفعه مقام المفلحين وعظمة شأنهم، والإتيان بحرف الاستعلاء في قوله " عَلَى هُدًى " إشارة إلى استيلائهم على الهداية ورسوخها فيهم وشدة تمكنهم منها[26]. وثباتهم عليها ومحاولتهم الزيادة به والسير في طريق الخير؛ لأن الاستعلاء أقوى أنواع تمكن شيء من شيء[27]، كما ونلحظ إشارة السيد السبزواري إلى أنّ تنكير لفظ " هُدًى " يفيد العظمة وعدم محدودية الهداية بحد [28]؛ لأن التنكير يُمثّل نزعة إلى العموم والشيوع [29]، ولأنّها جاءتهم من ربّهم الذي وفقهم إلى سبيل الخير والإيمان، واليقين باليوم الآخر، فإسناد الهداية بيان لشرفها

واستمرارها مع تمكنهم منها؛ لأنها من رب هذا الوجود[30]. فالتفاعل الخطابي في تفسير الآية الكريمة للسيد السبزواري مطابقا للمعنى الثالث عند غرايس، والغرض التداولي من النص هو التعظيم لمقام المتقين ولرفعه شأنهم بين العباد.

2. الاستلزام الحواريّ المعمم (السُلَّمي) المتولّد بواسطة الأسوار اللغوية (Scalar implicature)

عُرِف في الدرس اللساني الحديث مصطلح (الأسوار اللغوية)، ويعرف بأنه " مقوله لغويّة _ عرفنيّة أساسها اتّفاق المتكلم والمخاطب في حصول المرجع أو المفهوم حصولاً واحداً في ذهنيهما. وقد تعددت المسوّرات اللغوية، فمنها الإسمية ومنها الحرفية "[31] وقد عُنيّ كثير من المفسرين بالمسوِّرات اللغوية؛ وذلك لارتباطها في تحديد المدلول في الوحدة المعجمية، وقد وردت فيما يأتي:

الوحدة الحوارية الاولى للسور اللغوي (كل):

تتفق كثير من الأسماء في طبيعة دلالتها، إذ لا تُسمّي مدلولها تسمية مباشرة وإنّما هي بمثابة الإشارة إليه من درجةٍ ثانية، وتُدرج (كلّ) ضمن (الكنايات) وقد استعملها النحاة من قبيل الضمائر والموصولات الاسمية والإشارة[32]. وقد تفيد (كلّ) شمول الحكم لمضمونها المتعدّد دون استثناء، ومنها قوله تعالى محاوراً رسوله الكريم (ص): (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) [البقرة: 145] في خطاب الله تعالى لرسول الكريم (ص) في أمر تشريع أهم جهات وحدة المسلمين هي وحدة قبلتهم، والدليل على ثبوتها، مع محاجةٍ أهل الكتاب، ولهذا نزلت الآية، كأنّه تعالى قال: ولئن جئتهم بكل برهان وحجة على صدقك ما اتبعوا قبلتك، ولم يعترفوا بملتك، فقد تمكن منهم الجهل وغلب عليهم العناد[33]، والمراد بكل آية آيات متزايدة، والمراد بالآية الحجة والدليل على أن استقبال الكعبة هو قبلة الحنيفية، فقد نجد أن استعمال الرمز التداولي (كُلَّ) في الآية دلّ على العموم، ولكن استلزم منه:

_ أنّ يؤتوا أغلب الآيات

_ أنّ يؤتوا الكثير منها

فإطلاق لفظ (كل) على الكثرة شائع في كلام العرب، وصاحب «القاموس» قال في مادة كُلَّ «وقد جاء استعمال كل بمعنى بعض ضد» فأثبت الخروج عن معنى الإحاطة وكان الأصوب أن يقول بمعنى كثير، وأن إنكارهم أحقية الكعبة بالاستقبال ليس عن شبهة حتى تزيله الحجة ولكنه مكابرة وعناد فلا جدوى في إطناب الاحتجاج عليهم، وإضافة " قِبْلَتَكَ" إلى ضمير الرسول لأنها أخص به، ولأنه سألها بلسان الحال، وإفرادها في قوله: "وما أنت بتابع قبلتهم " مع كونهما قبلتين، ولكل من أهل الكتاب قبلة معينة، وأكثر[34]. فأراد الله تعالى أيآسهم من اتباعه قبلتهم بعدما اتضح الحق، فأكد بالجملة الاسمية الدالة على استمرار نفي تبعيته (صلى الله عليه واله)

لقبلتهم، وبضمير الخطاب وهو أنت، أي أنت بصفتك التي في علمهم، وهو أنك المرسل وهم الكذابون المبطلون، وأكده أيضا بالباء في (بِتَابِعٍ) الدالة على استغراق النفي وتأكيده[35] وقوله تعالى في اختلاف قبلتهم: (وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) فلا اليهود تتبع قبلة النصارى ولا هؤلاء تتبع قبلة اليهود، فأن كلاً منهما يرى قبلة صاحبه باطلة، فكيف يتوجه الى الباطل ويستقبله، فقضية هنا قضية عقلية برهانها معها، أي: أنه إذا ثبت أنك على حق ـ كما هو الواقع ــ وكل ما خالف الحق بعد ثبوته هو ظالم، فأنك لو خالفته لكنت من الظالمين، وأن استعمال السور اللغوي (كُلَّ) في تفسير السبزواري للآية من قبل الله تعالى محاولة منه أياس النبي (ص) من اتباعهم لقبلته بعدما اتضح الحق بالتوجه إلى الشطر المسجد الحرام، والغرض التداولي في هذا الآية هو توعيد وتوبيخ لكل من اتبع أهواءهم وهو عالم ببطلان ماعندهم، فقد سايرت الذين ظلموا ورسخوا في ظلمهم، فإنك إذن معدود في سلكهم وجمعهم الآثم[36].

الوحدة الحوارية الثانية:

قال الله تعالى محاوراً لرسوله (ص) (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) [الأنعام: 25]

لو تأملنا خطاب الله تعالى لرسوله الكريم (ص) لبيان أصناف المشركين والظالمين، لوجدنا أن الآية وتشير إلى طائفة منهم _ كأبي جهل وغيره _ الذين اجتمعوا فسمعوا رسول الله (ص) يقرأ القرآن ويدعو إلى التوحيد والإيمان بالله الواحد الأحد، وينذرهم يوم القيامة، وقال الله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا)، فوحد الضمير في (يستمع) حملاً على لفظ مَن، وجمعه في(قلوبهم) على معناها؛ لأن المناط في الاستماع الأفراد، وفي التغطية قلوبهم؛ لأن المجموع بلغوا حالة لا يرجى منهم الخير، وأنهم اجتمعوا على الإعراض عن الإيمان، والتعريض بالرسول (ص)، فكان مجازاة على شركهم وكفرهم، أنشأنا على قلوبهم بأغطية تحول دون فهم آيات القرآن الكريم والاعتبار به [37]، فلَا يصل الحق نوره إلى قلوبهم، لوجود ذلكَ الغطاء الحاجز المانع، بل إنه لَا يصل إلى مسمعهم، فقد جعل الله تعالى في آذانهم وقرا، والوَقر، بفتح الواو ثقل السمع، وهذا النص ينبئ عن كمال جهلهم بالحق وابتعادهم عن فهم القرآن والتدبر فيه[38]. فقد نجد أن استعمال الرمز التداولي (كُلَّ) في الآية دل على العموم، ولكن استلزم منه:

ـ إنّ يروا اغلب الآيات

ـ إنّ يروا الكثير منها

ويؤيد ذلك الدليل العقلي؛ لأن في ذكر عدم إدراك الرؤية بعد عدم انتفاعهم بالعقول والآذان الدلالة على عدم رجاء الإيمان منهم، فقد بلغت بهم الحالة أنهم نظروا إلى كل حجة ودليل من الآيات البينات والمعجزات الباهرات

الدالة على صدق الرسول (صلى الله عليه واله)، وصحة رسالته، وأحقية ما يدعو إليه، فلم يستفيدوا منها وأعرضوا عنها ولم يؤمنوا بها عناداً ولجاجاً واستحكاماً للتقاليد عليهم، فقد عطلوا أعظم النعم التي أنعمها الله عليهم وخرجوا بذلك عن حدود الإنسانية، وقوله تعالى: "حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ" ولبيان فظاعة حالهم بأن تكذيبهم بالآيات، ومكابرتهم للحق أنهم جاؤوك ليخاصموك ولينازعوك في جدال مستمر في نبوتك ودعوتك، ودليل ذلك كلمة (يُجَادِلُونَكَ) جملة حالية أي مجادليك وبلغ تكذيبهم بالآيات وعنادهم بعدم الإيمان إلى المجادلة، فلم يكتفوا بعدم الإيمان بل قالوا: " إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ " بل تجرؤوا على الله ورسوله بأن جعلوا القرآن المعجزة الخالدة بمنزلة الأخبار الكاذبة والقصص والخرافات فلم يعقلوا ما فيه من الآيات البينات والعلوم والمعارف؛ بسبب كفرهم وعنادهم لرفضهم المعجزة. وأن استعمال السور اللغوي (كُلَّ) في تفسير السبزواري من قبل الله تعالى لنفي كل دليل او حجة لإيمان هؤلاء بمعجزة الرسول (ص) مهما يكن قوته الظاهرة، ودلالته القاهرة؛ لأن العناد والجحود يقهر كل حجة ويمنع الحق[39]؛ فالغرض التداولي هو غرض نفسي، فضلا عن اقتران هذا الخطاب بالتوبيخ والتقريع للكافرين والمشركين، لإمكان إزالته عنهم باختيارهم.

الوحدة الحوارية الثالثة:

قال الله تعالى محاوراً البشر: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) [الأنعام: 123]

إنّ لغة الحوار التي استعملها الله تعالى مع المشركين، لبيان سبب آخر من أسباب الاستمرار على ضلالهم، هو مكر أكابر قريتهم بالرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين وصرفهم الحيل عن متابعة الدعوة[40]، فيقتدي بهم أصحاب الأهواء الضالّة والنفوس المريضة، فيرتدّوا مجرمين، فيتطابق هذا مع أعمالهم المنكرة التي تمنعهم عن قبول الإيمان، والدخول في طاعة الله تعالى، فنجد أنَّ استعمال الرمز التداولي (كُلِّ) مستلزمة بعض مدرجات السلّم لا كلّها، ولكن استلزم الله تعالى منه:

ـ اغلب أهل القرية

ـ الكثير من أهل القرية

ـ بعض منهم

والجعل هنا إمّا راجع إلى التكوين، فهو يرجع إلى مقتضيات استعداداتهم، فيكون بمعنى خَلَق، أي خلقنا في كلّ قرية أكابر مجرميها، أو راجع إلى التشريع، فيكون بعد التشريع الهداية وإرسال الرّسل وإنزال الكتب، أمرنا باتباعها فلم يأتمروا وتمادوا في الكفر والطغيان[41]، والتقديم والتأخير في الآية (جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا) وفي كل قرية مفعول جعلنا الثاني، وأكابر مفعول لجعلنا الأول، ومجرميها مضاف لأكابر[42]، يرجع إمَّا لكونهم أقوى على استتباع الناس، وأقدر على المكر بهم، أو لأنَّ المقصود هو رجوع المكر إلى ماكره، والمكر بالله تعالى

وآياته إنّما يصدر منهم، أو يرجع المعنى جعلنا مجرميها أكابر، فانَّهم إذا صاروا أكابر قرية وزعماءها فيمكرون بأنحاء المكر والخداع للحفاظ على مكانتهم، ويرشد إليه قوله تعالى: (وَإِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها) (الاسراء 16)، ومن أثر استعمال السور (كُلّ) في تفسير السبزواري للآية الكريمة تبيَّن حقيقة اجتماعيّة، لوجود المجرمين في كلّ مجتمع، يكون بعضهم أكابر لهم نوع من السلطة والنفوذ الاجتماعي، والتأثير على الآخرين، يستعملون أنواعا من المكر والخديعة والحيل ليمكروا بالدعوة الدينيّة، ويعارضوا دعوة الانبياء والرسل؛ لأنهم يريدون إعلاء الباطل وإنكار الحق[43]. والغرض التداولي هو غرض اجتماعي ونفسي، فضلا على أنّ الآية تشمل على الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين الماكرين.

الوحدة الحوارية الاولى للسور اللغوي (بعض):

تُشكَّل المسوِّرات التبعيضية جزءاً مهماً من الوحدات الحوارية الاستلزامية، ويفيد المسوِّر (بعض) مصدر الشيء مطلقاً، وفيها وجوه متعددة قوامها (عنصر_ انتماء_ مجموعة)، فالتبعيض معنى سياقيّ متولّد من غياب العنصر أو الجزء لفظاً وورود المتعدّد بعدها، مثل: بعض النّاس[44]، ومنه قوله تعالى على لسان عيسى (عليه السلام) محاوراً قومه: (وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) [آل عمران: 49 _ 50] اختار عيسى (عليه السلام) استراتيجية يهيمن عليها اسلوب الإقناع، وابتدأ بيان الرسالة ببيان إثباتها، وهي المعجزة، كانت جزءا من الرسالة؛ لأنها ركنها ودعامتها التي قامت عليها، ولأن معجزة عيسى كانت تومئ إلى معانٍ من رسالته؛ ذلك بأن عصره كان عصرا ماديا، لَا يؤمن بالإرادة المختارة لله تعالى، ويؤمنون بالأسباب التي تجري في الحياة على أنها المؤثرات في إيجاد الأشياء [45]، فابتدأ بإحياء الموتى، وأبراء الأكمه والأبرص، وعبر بقوله: (بِإِذْنِ اللَّهِ) للإشارة إلى أن المبدع المنشئ هو الله سبحانه وتعالى، والآية الرابعة بينها سبحانه وتعالى بقوله: (وَأُنَبِّئُكُم بمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخرونَ فِي بُيوتِكُمْ) أي الاخبار بالمغيبات التي يختص علمها بالله تعالى، فقد استعمال عيسى (عليه السلام) السّور اللغوي (بَعْضَ)، هنا استلزم نفي كل القيم ذات الترتيب الأعلى في هذا السلّم الحواري، بمعنى أنّه:

ـ لم يحلَّ لهم الكثير من الطعام.

ـ لم يحلَّ لهم أغلبه.

ـ لم يحلَّ لهم كله.

أي بمعنى جئتكم لأحلَّ لكم بعض الطبيات مما حرمته شريعة موسى بن عمران على بني اسرائيل، بسبب ظلمهم وكثرة سؤالهم قال تعالى: (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) [النساء160_161] أو

نسخ بعض الاحكام التي تغيرت حسب تغير المقتضيات وتبدلها[46]، فعبر بـ" بعض" ليبين لهم أمور دينهم، ولو استعمل غيره لربما لم يتقبلوه، ولانتفى تحقق الهدف المقصود، وأنّ أشار سبحانه إلى الآيات الكبرى التي أجراها على يدي السيد المسيح (عليه السلام) تتلخص في أمرين هما: مصدقة لما جاء في التوراة مع إحلال بعض الذي حرم على اليهود فيها، وثانيها: يدعو إلى الإيمان بأنه خالق كل شيء ومبدعه ومنشئه بإرادته المختارة[47]، وهذا ما تضمنه قوله تعالى: (وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) تأكيداً لما سبق وتثبيتا للحجة، والتنوين في " بِآيَةٍ " للتفخيم ما جاء به من المعجزات؛ لأنّها جزء من الرسالة اليسوعية[48]، وان استعمال السور اللغوي (بعض) لتفسير السبزواري للآية لإثبات عيسى (عليه السلام) رسالته بالحجة والبرهان، وكأنّه اراد من هذا التواصل في الحوار إلى إقناع قومه، وانصياعهم له بالتدريج المتضمن، والغرض التداولي هو غرض نفسي يتبعه غرض إقناعي إبلاغي للرسالة السماوية.

الوحدة الحوارية الثانية:

قال الله تعالى محاوراً رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) [المائدة: 49]. في الخطاب القرآني تعظيم لشأن القرآن الكريم، وتنويه بعظيم فضله وتفوقه على سائر الكتب الإلهية، بين فيه قسما من اقسام الحكم والقضاء بين الناس، واختص بما انزل الله تعالى وهو الحق[49]، وانّ تكرار الأمر بالحكم لتأكيده؛ لأنه جاء في الكلام ما ربما يوهم أن لكل قوم شريعة خاصة بهم، وأن حكم القرآن وما نزل على النبي – صلى الله عليه وسلم – ليس له صفة العموم فكان ذكر الأمر بالحكم مرة أخرى نفيا لهذا الوهم، وتأكيدا لمعنى عموم شريعة القرآن، وهنا بحث لفظي فيه تقريب لمعنى النص الكريم، هو بيان المعطوف عليه في قوله تعالى: (وَأَنِ احْكُم) عدة تخريجات كلها تتلاقى في تأكيد الأمر بالحكم بما أنزل الله تعالى، إما أن تكون (وأن احكم) معطوفة على الكتاب، وتفسير الكلام على هذا التخريج أن يكون المعنى فيه وأنزلنا إليك الكتاب، وقد اقترن به الأمر بأن تحكم بين الناس به، وإما أن تكون " أنْ "مصدرية، وقد جوّز الزمخشري(ت 538هـ) دخول " أنْ " على أي فعل، ويكون المعنى: وأنزلنا إليك مع الكتاب والحكم بما أنزل الله تعالى، وكانت دخول " أنْ " المصدرية على الفعل الأمر، للدلالة مع المصدرية على الطلب وتأكيد معناه، وهي معطوفة على: " بالحق "، وإما أن تكون " أنْ " هي المخففة من الثقيلة وضمير الشأن اسمها محذوف، أي الحال والشأن أن تحكم به بينهم، وتكون معطوفة على الكتاب، و" أنزلناه " بمعنى أعلمناك؛ لأن العلم هو الغاية[50]، فاستعمال الحق تعالى بما انزل الله الاستراتيجية التلميحية في (بعض) يستلزم أنّه تعالى ألمح إلى تأكيد التحذير بتهويل الخطاب، أنّه نفي كل القيم العليا في السلّم الحواري، بمعنى أنّه:

ـ لم يَفتنوك كثيراً

ـ لم يَفتنوك أغلبه

ـ لم يَفتنوك كله

لما بينه لرسوله (ص) بعضا من هذا الاساليب المتعددة والخفية في اضلال الناس واغوائهم، وأن استعمال هذا الرمز التداولي عند السيد السبزواري غاية تداولية تواصلية نفسية الغرض منه هو: لأجل اعلامه (ص) بفظاعة الامر وشدته فان فتنتهم له بالصرف عن بعض ما انزل الله إليه ولو كان اقل قليل هو عظيم عن الله تعالى، أو لأجل التأكيد له بأنهم جادون في اضلاله (ص) ولو كان في أقل قليل من الحكم ولهم في ذلك أساليب متعددة، أو لأجل تعليم غيره (ص) من أمته من الحذر منهم، أو لأجل بيان أن العصمة فيه لا توجب سقوط التكاليف عنه (ص) فهو المختار في كل فعل، الا أن العلم الذي علمه الله تعالى يمنعه من ارتكاب السوء والفحشاء، وفي هذا ايضا تطييب لنفس الرسول الكريم وارشاد له (ص) بأن لا يحزن إذا تولوا عن الدعوة واعرضوا عن قبول ما انزله الله تعالى، فأن حكمه نافذ وسيحاسبهم على ما اجرموا، وذكر تعالى (بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ) هو ذنب التولي والاعراض عنه هو ذنب عظيم ايذاناً بأن لهم ذنوباً فهذا واحد من جملتها، وإيماءً بتغليظ العقاب فيكفي أن يؤخذهم ببعض ذنوبهم فيهلكوا أو تسوء عاقبتهم [51]، وهذا يتطابق مع اختيار غرايس للدينامية الفلسفية الا أنّ " الخطاب الطبيعي هو خطاب مفتوح يكشف عن خصوصيات تخاطبية تجعل اللغة في غالب الأحيان لا تظهر خفيّها، وهو ما يعزز دور السياق في سد الثغرة الحاصلة بين الإحالة الحرفية للألفاظ ـبعض هناـ وبين ما يمكن أن يستفيده المخاطب من خفي الخطاب" [52]؛ فالغرض التداولي هنا هو غرض نفسي، فضلاً عن تسلية للنبي (ص) عن امتناع القوم من الاقرار بنبوته واعراضهم عن قبول الحق، لقله اهل الإيمان ولكثرة أهل الفسوق.

الوحدة الحوارية الاولى للسور اللغوي (قليل):

قال الله تعالى محاوراً لرسوله الكريم (ص) (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) [البقرة: 79]

لو تأملنا في خطاب الله تعالى لرسوله العظيم محمد (ص) وهو في معرض موقف آخر من مواقف اليهود بالكيد والخيانة والمكر بتحريف كلام الله تعالى محاولين بث الاباطيل والأكاذيب تبعا لأهوائهم، وأضاف الله تعالى الكتابة إلى اليد مع أنها لا تكون الَّا بها تبييناً للموضوع بقوله: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)، إشارة إلى تحقير الموضوع يعني أن ما يفعل باليد لا يليق أن ينسب إلى الله تعالى، ويمكن أن يكون فيه إيماء إلى ايكال الأمر إلى انفسهم[53]، فهم مصدر الإعلام به، وأنه لَا مصدر له من الله تعالى، يضلون به الأميين منهم، ويعلنونه على أنه من عند الله تعالى، وهم الذين كتبوه وصنفوه، حقيقة لَا مجاز، وفيه تصوير لحالهم، وهم يكتبون بأيديهم[54]، فقد أوعدهم الله تعالى بالويل والنار، وعلل الباعث لهم بالثمن الضئيل، بدليل استعمال الله تعالى الرمز التداولي (قَلِيلًا)؛ إذ استلزم الله تعالى منه:

ـ لم يشتروا بثمن الكثير
ـ لم يشتروا بثمن الأغلب
ـ لم يشتروا بثمن الكلي

هنا نجد النص الكريم يفرض معاوضة قامت بين أحبار اليهود في أفعالهم، اشتروا بالبضاعة الثمينة الغالية التي في أيديهم بأن دفعوها في نظير ثمن ضئيل هو أعراض الدنيا، أو نقول اشتروا ما في أيديهم من حقائق اؤتمنوا عليها وأخذوا ثمنا قليلا مهما حسبوه كثيرا[55]، فالمراد بالاشتراء هنا هو التبديل، فوصف سبحانه وتعالى الثمن بالقلة إما لأجل فنائه وإن كان كثيراً، أو لأجل أن الحق لا يقابل بأي ثمن فإن كل ما في الدنيا إن قوبل بإزالة الحق عن مقره وإظهار الباطل، لكان ذلك قليلاً في مقابل الذنب العظيم الذي فعلوه، فقال تعالى: (وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (البقرة 102)، وكرر سبحانه وتعالى الوعيد في آياته المباركة، إما لأجل عظمة الجرم وشناعته، أو لأجل صدور جرائم عظيمة، كالتغيير، ونشره بين الناس، وأخذ الثمن في التغيير، فقال سبحانه:(فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)[56]، وعد الله تعالى الكتابة سببا للعقاب الشديد، والكسب الذي كسبوه بالتضليل سببا للويل، بدليل (يَكْسِبُونَ) بالمضارع للدلالة على تجدد ما يكسبون، وكذلك الويل يكون متجددا مثله[57]، وقد بيَّن سبحانه بعض هذه التأويلات الفاسدة، والتفسيرات الكاذبة، فحكى سبحانه وتعالى عنهم فقال: " وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " [البقرة:80]، والغرض التداولي من هذا النص عند السيد السبزواري هو غرض نفسي اجتماعي بأن يكون لهم سلطان ورياسة، وأن يميلوا أهواء الناس إليهم بالباطل، فضلاً عن الوعيد لهم بالعذاب الشديد.

الوحدة الحوارية الثانية:

قال الله تعالى محاوراً رسوله الكريم محمد (ص): (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا) [النساء: 46]

ولو تأملنا في خطاب الله تعالى المتوجه لرسوله الأعظم (ص) والتابعين له ايضاً باعتبار انه سيدهم عن بعض احوال أهل الكتاب ولاسيما اليهود، لما اتصفوا بالضلالة والغواية والتمادي في العناد، لبيان الدين الحق وتثبيت عزيمة المؤمنين وتنشيط قواهم من زيغ مكرهم وخيانتهم، ولبيان بعض من وجوه التحريف بقوله: (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ) بمعنى ستر الواقع والحقيقة وحجبها عن الناس، من جميع أقسام التحريف ووجوه من التحريف الظاهري اللفظي والمعنوي، ولبعض وجوه التحريف استعمال القول بوضعه في غير المحل الذي ينبغي ان يوضع بقوله (وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) مع أن السمع لا يكون الا في موضع الطاعة فلابد ان يقولوا سمعنا واطعنا، وقوله " وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا" وهي كلمة ذات وجهين للخير والشر[58]، ومعنى المراد به اسمع صدى دعوتك لنا[59]، فكانوا يضمرون المعنى الثاني اي الشر وهو اسمع حال كونك غير مسمع كلاما اصلاً بصمم أو موت أو آفة[60]. وأكثر المفسرين، وهو أن يكون مرادهم لعنهم الله الدعوة عليه، بعدم السماع، وكذا كلمة "وَرَاعِنَا" بمعنى انظرنا نظرة رعاية ومحبة طالبين منه الإقبال عليهم[61]، وتستعمل هذه الكلمة بمعنى الحفظ أو المراعاة أو المراقبة[62]، فهم يضمرون المعنى الثاني

هو رمى النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – بالرعونة والسفه، ويطعنون بذلك في الدين الذي يدعو إليه[63]، فلو انهم اختاروا الهدى على الضلال واطاعوا الرسول لكان خيرا لهم، ولكن لخبث سرائرهم وتمردهم على الحق واعراضهم عنه، فلعنهم الله تعالى وطردهم عن رحمته، بدليل استعمال الرمز التداولي " قَلِيلًا " ؛ إذ استلزم نفي القيم الأعلى في السلّم بمعنى:

ـ لم يؤمنوا منهم كثيراً

ـ لم يؤمنوا منهم في الأغلب

ـ لم يؤمنوا منهم كلياً

ويدل عليه وجود بعض الادوات وهي كلمة (لو) الشرطية غير جازمة، المشعرة باستحالة وقوع المتمنى به، فانهم ملعونون لا يوفقون للإيمان والاستثناء من ضمير المفعول في " لعنهم "، والاستثناء في الآية انما يكون بخروج بعض الافراد من الحكم المترتب على المجتمع وهو عدم الايمان المستفاد من قوله (لَا يُؤْمِنُونَ) فاستثنى منه قليل الافراد ممن اختاروا الطريق الانفع والأقوم فشملته العناية الربانية فآمن، ومثل ذلك بالنسبة الى المجتمعات لا سيما المجتمع اليهودي الذي استحق كثيراً من اللوم والغضب واللعن الا بعض الافراد[64]، ودلّ هذا النص عند السيد السبزواري لفت نظر وتنبيه للمؤمنين، وتنشيط قواهم في مقاومة زيغ المبطلين ومعرفة السبل لدفع كيدهم ومكرهم وخيانتهم من خلال عرض احوال اعداء الدين واقاصيصهم، وهذا من الاسلوب البديع الذي طالما يستعمله القرآن الكريم في تنشيط النفوس واصلاحها، فلا يتصور القارئ خارج دائرة الحوار؛ لكونه بين الله تعالى ورسوله والتابعين في زمن معين، لا بل أنّ ((القارئ متلفظ مشارك ماثل في خطاب الملف، والنص منتوج يجب أن ينتمي مصيره التأويلي الى آليته التكوينية الخاصة.....))[65] وفي هذا تحقق الغرض التداولي النفسي التهذيبي للكل المشمولين في الحوار.

الخاتمة

في نهاية البحث نرى أنه حقق مجموعة من النتائج، أهمها:

1- إنّ الاستلزام الحواري في آيات القرآن الكريم منشؤه الأساليب اللغوية والإنشائية، وما تضفيه أدوات الحجاج الأخرى، فضلاً عن سائر الأسباب الأخرى التي تتعلّق بالفهم العام لسياق الآيات.

2- الاختلاف في المقاصد التي تخرج إليها الأساليب اللغوية يؤدي الى الاختلاف في المعنى وتعدّده، ويترتب عليه شيء مهم، لذا كانت غاية البحث التوصل لذلك الشيء المهم إن كان خافيا من الوهلة الأولى على القارئ، ومن ثمّ ما يضفيه من معانٍ متعدّدة المقاصد اللغوية، فضلا عن التفسيرية والبيانية والإعجازية.

3- من متبنّيات السبزواري أنّه لا يصرّح برأيه كثيرا، ولا يحسم الوجه الأقرب للمعنى حسما قاطعا، تاركا الأمر للباحثين في أن يدلوا بدلوهم فيها، بما يتوفر لديهم من أدوات التحليل النحوي والدلالي والسياقي والمنطقي، وهذا ما لمسناه في الكثير من المواضع.

4- القاعدة التي استند إليها الباحث في انتقاء الآيات محل الدراسة أن يكون للآية محل الدراسة سياق، وعلاقة تناسب مع الآيات السابقة واللاحقة، ولاسيما في آيات القصص القرآني، فإنّ الآية مقطوعة السياق فيها صعوبة في تحديد المعنى؛ لأنّ الاستناد إلى الصنعة النحوية فقط غير كافٍ في الوصول لفهم أقرب.

5- حاول الباحث الوصول للفهم الأقرب للنصّ ومقاصده، ليس على سبيل الجزم والتوكيد بأنّ هذا المعنى هو الذي أراده (عزّ وجل) بقدر ما هي محاولة للتدبّر والتفكّر في هذا السفر الإلهي المعجز في بلاغته وأساليبه اللغوية ولمساته الأدبية.

الهوامش:

1 ينظر: علم التخاطب الإسلامي، محمد محمد يونس: 227.
2 استراتيجيات الخطاب:432.
3 نظرية الفعل الكلامي، هشام عبد الله خليفة: 162.
4 ينظر: المنطق والمحادثة: اطلالات على النظريات اللسانية والدلالية: 2/ 633 فما بعدها (مقاله)
5 ينظر: التداوليّة، جورج بول، ص 73_74، والأبعاد التداولية عند الأصوليين، ص 76.
6 ينظر: الأبعاد التداولية عند الأصوليين، ص 76.
7 اللسانيات النشأة والتطور، أحمد مومن: 127.
8 ينظر: إعراب القرآن وبيانه: 1/ 44.
9 ينظر: مواهب الرحمن: 1/ 101_ 102ج 1،
10 ينظر: إعراب القرآن وبيانه: 1/ 45.
11 ماالتداوليات؟: عبد السلام اسماعيلي علوي، في كتاب التداوليات علم استعمال اللغة: 21(بحث)
12 ينظر: تفسير الطبري: 10/ 171_173.
13 ينظر: تفسير الطبري: 10/ 176.والتحرير والتنوير: 6/ 163.
14 ينظر: البحر المحيط في التفسير:4/ 218.
15 ينظر: مواهب الرحمن: 11/ 150 ـــ 152.
16 الخطابة، أرسطو:9. 56.
17 _ينظر: إعراب القرآن وبيانه: 1/ 505، والجدول في إعراب القرآن:3/ 172.
18 ينظر: مواهب الرحمن: 5/ 248.
19 ينظر: مواهب الرحمن: 5 / 248 _249.
20 ينظر: الجدول في إعراب القرآن:3/ 172، وزهرة التفاسير:3 / 1207، وإعراب القرآن وبيانه:1 / 503.
21 ينظر: زهرة التفاسير: 3/ 1208.

22 الكشاف، الزمخشري:1 / 360.
23 ينظر: مواهب الرحمن: 5/ 249.
24 ينظر: زهرة التفاسير: 3/ 1208.
25 ينظر مواهب الرحمن: 1/ 75 ـ76.
26 ينظر مواهب الرحمن: 1/ 77ـ80.
27 ينظر: التحرير والتنوير: 1/ 242.
28 ينظر: مواهب الرحمن: 1/ 80.
29 ينظر: شرح الكافية، الاستراباذي: 2/ 128_ 129.
30 ينظر: زهرة التفاسير: 1/ 113.
31 فصول في الدلالة مابين المعجّم والنحو، د. الأزهر الزناد، الدار العربية للعلوم، بيروت، المطبعة الاولى: 60.
32 ينظر: فصول في الدلالة مابين المعجم والنحو: 69.
33 ينظر: مواهب الرحمن:2 / 104_ 126
34 ينظر: زهرة التفاسير: 1/ 450.
35. ينظر: التحرير والتنوير: 2/ 35_36.
36 ينظر: مواهب الرحمن: 2/ 124.126.
37 ينظر: مواهب الرحمن: 13 / 172. 175.
38 ينظر: زهرة التفاسير:5/ 2471.
39 مواهب الرحمن: 13/ 174 _ 204.
40 ينظر: التحرير والتنوير: 8/ 47.
41 ينظر: مواهب الرحمن: 14/ 355 . 356.
42 ينظر: إعراب القرآن وبيانه: 3/ 218.
43 ينظر: مواهب الرحمن: 14 / 357. _ 359.
44 ينظر: فصول في الدلالة والمعجم: 62.
45 ينظر: زهرة التفاسير:3/ 1229_ 1232.
46 ينظر: مواهب الرحمن: 5/ 289ـ292.
47 ينظر: زهرة التفاسير: 3/ 1232.
48 ينظر: مواهب الرحمن: 5/ 294 _295.
49 ينظر: مواهب الرحمن: 1/ 320ـ 327.
50 ينظر: زهرة التفاسير:4/ 2231_2232.
51 ينظر: مواهب الرحمن: 11/ 328ـ329.
52 التداوليات علم الاستعمال اللغة: 457.
53 ينظر: مواهب الرحمن:1/ 295 ـ 300.
54 ينظر: زهرة التفاسير: 1/ 283_284.
55 ينظر: زهرة التفاسير: 1/ 283_ 284.

56 ينظر: مواهب الرحمن: 1/ 300ـ301.

57 ينظر: زهرة التفاسير: 1/ 285، وإعراب القرآن وبيانه:1/ 134. ينظر: مواهب الرحمن: 8/ 273 – 278.

58 ينظر: زهرة التفاسير: 4/ 1702.

59 ينظر: مواهب الرحمن:8/ 278.

60 ينظر: مواهب الرحمن:8/ 278.

61 ينظر: زهرة التفاسير: 4/ 1702.

62 ينظر: مواهب الرحمن: 8/ 278.

63 ينظر: زهرة التفاسير: 4/ 1702.

64 ينظر: مواهب الرحمن:8/ 273 ـ 287.

65 مقاربه النص السرد التخييلي من وجهة تداولية: محمد نجيب العمامي، التداوليات وتحليل الخطاب: (بحوث محكمة): الإشراف والتقديم: د. حافظ إسماعيلي علوي، د. منتصر أمين عبد الرحيم: 233.(بحث)

المصادر والمراجع :

- الأبعاد التداولية عند الأصوليين مدرسة النجف الحديثة أنموذجا، فضاء ذياب الحسناوي، الطبعة الاولى، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت _ لبنان، 2016م.
- استراتيجيات الخطاب _ مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت _ لبنان،2004م.
- اطلالات على النظريات اللسانية والدّلالية في النصف الثاني من القرن العشرين، بإشراف : د. عزّ الدين مجدوب، الطبعة الاولى، المجمع التونسي للعلوم والادب، قرطاج – الجزائر، 2012م.
- إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (ت: 1403هـ)، الطبعة الرابعة، الناشر: دار الإرشاد للشؤون الجامعية – حمص – سورية، 1415 هـ.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: 745هـ)،ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت _ لبنان، 1420 هـ، (د.ط) .
- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: 1393هـ)، الدار التونسية للنشر – تونس، 1984 هـ.
- التداوليات علم استعمال اللغة، تنسيق وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، إربد _ الأردن، 2014م.
- التداوليات وتحليل الخطاب (بحوث محكمة) : الإشراف والتقديم : د. حافظ إسماعيلي علوي،د. منتظر أمين عبد الرحيم، المطبعة الاولى،دار كنوز المعرفة، عمان، 1435، 2014م .
- التداوليّة، جورج بول، ترجمة: د. قصي العتّابي، الطبعة الاولى، الدار العربية للعلوم، بيروت _ لبنان، 1431هـ، 2010م.

- تفسير الطبري جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: 310هـ)،ت: أحمد محمد شاكر، الطبعة الاولى، مؤسسة الرسالة، 1420هـ، 2000م.
- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: 310هـ)، ت: أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت _لبنان، 1420 هـ - 2000 م.
- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (310هـ)، ت: أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت _لبنان، 1420 هـ - 2000 م.
- الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود بن عبد الرحيم صافي (ت: 1376هـ)، الطبعة الرابعة، دار الرشيد، دمشق – سوريا، 1418 هـ.
- الخطابة، ارسطو طاليس، ت: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت _ لبنان، 1979م.
- زهرة التفاسير، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت: 1394هـ) دار الفكر العربي، بيروت _ لبنان، 1987م، (د.ط).
- شرح الرضي على الكافية، محمد بن الحسن الاستراباذي (688هـ)، ت: يوسف حسن عُمر، الطبعة الثانية، جامعة قاريوس، بنغازي، 1996م.
- علم التخاطب الإسلامي دراسة لسانية لمناهج علماء الاصول في فهم النص،د. محمد محمد يونس، الطبعة الاولى، دار المدار الاسلامي، إفرنجي، 2006م.
- فصول في الدلالة مابين المعجّم والنحو، د.الأزهر الزناد، الطبعة الاولى، الدار العربية للعلوم، بيروت _ لبنان، (د.ت).
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (538هـ)، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت _ لبنان، 1407 هـ.
- اللسانيات النشأة والتطور، أ. أحمد مومن، الطبعة الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عنكنون _ الجزائر، 2005م.
- مواهب الرحمن في تفسير القرآن، السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري، الطبعة الخامسة، مطبعة نكين، قم . ايران، 1431هـ .2010م.
- نظرية التلويح الحواري، هشام عبدالله الخليفة، الطبعة الاولى، مكتبة لبنان، بيروت _ لبنان، 2013.
- نظرية الفعل الكلامي، إ.هشام عبد الله خليفة، الطبعة الاولى، مكتبة لبنان، بيروت _ لبنان، 2007.